عاد وثمود

أمتان تبارتا في عصيان الله - عز وجل- وكأنهما تتباريا من يكون الأكثر عصيانًا وطغيانًا!

أعطاهما الله كل النعم التي لا تُحصى ولا تعد، وبدلًا من أن يشكرا الله كفرتا بنعمه، وازدادتا كفرًا، فكان عقابهما الشديد من رب العباد.

الأمة الأولى هي قوم عاد.. و"عاد" هو اسم مؤسس هذه القبيلة وجدها الأكبر، يقال في روايات متعددة: إن هذا الاسم عربي، وفي أكثر الروايات منطقية، فإن عاد هو بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وإلى عاد يُنسب نبي الله تعالى هود عليه السلام، الذي أرسله -سبحانه وتعالى- إلى قوم عاد ليدعوهم إلى طريق الحق والخير، ويبعدهم عما كانوا فيه من غيٍّ وجهلٍ وضلالة، يرجَّح أنهم كانوا يقيمون في مدينتهم إرم، وقد وصفها الله بأنها مدينة لم يوجد مثيل لها، وأنها ذات أعمدة عملاقة وباهرة، وأنها كانت ذات مزارع وجنان وجدت على الأرض وعيون ماء لتزدهر هذه الأراضي، وحيوانات من مختلف الأنواع كالغنم والماعز والحمير والبقر والإبل، وقد رزقهم الله بالأولاد، فتكاثروا وأصبحوا ذوي عدد، كما أمدهم بالقوة العددية، ورزقهم بقوة جسدية وعقلية كبيرة، ويرجَّح أن إرم كانت تقع في منطقة الأحقاف، وهي التي تقع إلى الجهة الغربية من سلطنة عمان، وإلى الجنوب من الربع الخالي، وهذا الموقع حاليًا، هو موقع خالٍ من أي معالم، فهو موقع صحراوي، لا يمكن أن يصلح لحياة البشر.

دعا هود، عليه السلام، قومَه إلى طريق الله -عز وجل- إلى الإيمان بالله وعبادته، فقد كانوا يعبدون الأصنام ويتذللون لها ويقدمون لها القرابين المنوعة، وقد قيل إنهم أول الأقوام التي عادت لعبادة الأصنام بعد الطوفان الذي أصاب قوم نوح، وبالرغم من تكذيب قوم عاد لنبي

الله هود، فقد استمر في دعوته لهم بالترغيب والترهيب، فكان ردَّهم رفض وعظه وإرشاده، وأنهم لن يتركوا آلهتهم وأصنامهم، واتهموه بالسفاهة والكذب، وأنه لم يأت لهم بدليلٍ على دعوته ونبوته، وأن ما يفعلوه هو كفر، وأن الله واحد ليس له شريك في الخلق، ولا في الكون، وقالوا: إنه قد أوذي من قبل آلهتهم؛ لأنه يدعو لعبادة غيرها، وطلبوا منه أن يأتي بدليل صدقه على ما يقول.

أتت جميع ردود قوم عاد بالرفض البات والقاطع لعبادة الله عز وجل، وتكذيب هود عليه السلام وطغوا في الأرض وبطشوا وتجبروا وكفروا بآيات الله كلها وجحدوا وأنكروا رزقه، وتباهوا بقوتهم وبنيانهم، فكان أن أهلكهم الله لكبرهم وعنادهم وتكبرهم وتجبرهم، وبطشهم وإنكار ونسيان نعم الله والتمسك بالعادات والتقاليد المخالفة لشرعه سبحانه، وقد ركَّزت معظم الآيات على الخطيئة الكبرى لقوم عاد، ألا وهي الكبر والتكبُّر والاستكبار، وهي نفس خطيئة إبليس التي خرج بسببها من الجنة، وبعد محاولات كثيرة لهود عليه السلام ودعوة استمرت سنوات، وبعد اشتداد طغيان قومه، قال لهم هود عليه السلام: إن الله قد أوقع بهم غضبه لجدالهم عن آلهة قد نحتوها بأيديهم وأعطوها الألقاب، وحذَّرهم بأن عقاب الله قادمٌ لا محالة، وأنه سينتظر ذلك اليوم الذي سيحل فيهم العقاب الإلهي، ليعرفوا مدى صدق كلامه ودعوته، وتبرَّأ من شرك قومه، ودعا ربَّه أن ينصره على هذا الشرك، فاستجاب الله - عز وجل- لدعاء نبيه هود، وأوحى له أنه سينزل العقاب بهم، وسيجعلهم كزبد البحر متناثرين لا وجود حقيقي لهم، وتوعدهم بعذابٍ شديدٍ في الدنيا وفي الآخرة، ليذيقهم الخزي بعد التجبر والكبر.

أمسك الله عنهم المطر، وجعل أرضهم في قحطٍ وجفاف، فجلسوا يطلبون من آلهتهم المطر، فأرسل الله لهم عذابه الشديد، فاعتقدوا في

البداية أن السحاب والريح القادمين إلى مملكتهم هي استجابة أصنامهم لدعائهم، لكنها كانت المفاجأة، عذاب الله قد سقط فوق رؤوسهم، عذاب الله الذي طلبوه ساخرين من هود عليه السلام واستعجلوه به، ليكون دليلًا على صدق قوله ودعوته. جاءتهم الريح القوية الشديدة العاصفة والباردة التي لا تحمل أي خير في ثناياها، لتستمر طوال سبع ليال وثمانية أيام، فدمرت كل شيء في المدينة وجعلته رميمًا، ولم يبق إلا بيوتهم ومساكنهم ذات الأعمدة، لتكون شاهدةً على وجودهم بعد موتهم.. كانت الريح ترفع أفراد القوم العمالقة الأشداء في السماء، ثم ترميهم على الأرض كأصول النخل الخاوية، ثم تقع على الأرض جوفاء بالية، فلم تبقِ منهم أحدًا.

نجَّا اللهُ هود -عليه السلام- ومن آمن به من القوم، برحمته وقوته -سبحانه- من العذاب الشديد الذي لا يقدر عليه أحد، مهما بلغت قوته وشدته وجبروته وتركت بقايا قوم عاد كدليل على قدرة الله - عز وجل، على إنزال العذاب بمن يكفر ويطغى.

أما قوم ثمود فقد أتوا بعد قوم عاد، سُمي قوم ثمود بهذا الاسم نسبةً إلى جدهم الأكبر ثمود، وقيل إن ثمود هو ابن عاد ومن نسله، وقيل أيضًا إن ثمود هو بن عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، أما المكان الذي تواجدوا فيه، فهو في مدائن صالح أو ما يعرف بالحجر، وهذه المنطقة تقع في جنوب شرق مدينة مدين بلد نبي الله شعيب عليه السلام، الذي أرسله الله تعالى لاحقًا إلى قومه في هذه المدينة، وهي ذات المدينة التي لجأ إليها نبي الله موسى عندما فرَّ من مصر، وللحجر أهمية كبيرة في التاريخ، وهي الآن واحدة من أهم المعالم السياحيّة في المملكة العربية السعودية.

أرسل الله تعالى الكثير من الرسل إلى قوم ثمود، لكنهم قوم جبارين كانوا يكذِّبون بالرسل ويقتلونهم ويعيثون في الأرض فسادًا وطغيانًا

وكفرًا، وتجلَّت حكمة الله تعالى، بأن يولد سيدنا صالح عليه السلام بين قوم ثمود، ثم ترعرع وأصبح مشتدًا في عمره، وأرسله الله تعالى لقوم ثمود ليهديهم إلى طريق الحق والإيمان بالله وحده لا شريك له، ويتقربوا إليه -سبحانه تعالى، لكن قوم ثمود كذَّبوه في دعوته ونبوته، ويريدون دليلًا على صدق نبوته، وطلبوا منه إن كان نبيًا، أن يخرج ناقةً من الصخر، فاستجاب الله تعالى لسيدنا صالح عليه السلام، فانشق الجبل إلى نصفين، وخرجت ناقة ضخمة إلى الملأ، وكانت هذه الناقة تعادل في حجمها عشر نوق من نياق الأرض، ومن معجزاتها أنها رغم ضخامتها لكنها لا تؤذي أحدًا؛ إنسانًا أو نباتًا أو حيوانًا، وأمر الله تعالى أن يُخصص لها يوم كامل تشرب منه، دون أن يشرب معها أحد، كما كان من معجزاتها، أنها كانت تشرب الماء يومًا كاملًا لا يشرب فيه قوم ثمود، ومقابل الماء الذي تشربه تُدر حليبًا يكفي ثمود كلهم، ولكن كان الشيطان أقرب إليهم مما كانوا يعتقدون، أخذوا يتربصون بالناقة لقتلها بحجة أنها تحرمهم شرب الماء يومًا كاملًا، وحذَّرهم صالح عليه السلام من المساس بها، وتوعدَّهم بعذاب الله إن فعلوا ذلك، ولكنهم أصروا وعقروا الناقة.

أمهلهم الله تعالى ثلاثة أيام ليتوبوا عما اقترفوه، ويقال أصفرت وجوههم في اليوم الأول، وأحمرَّت في اليوم الثاني، وأسودت في ثالث يوم، وأنذرهم صالح بأن هذا دليل على قُرب عذاب الله تعالى إنْ لم يتوبوا، لكن دون جدوى، فأرسل الله تعالى سيدنا جبريل عليه السلام بالصيحة، وصاح صيحةً قطعت قلوبهم وتركتهم جثث هامدة في بيوتهم جاثمين.

أمتان أتاهم الله الكثير من النعم، ولكنهم لم يصونوها وكفروا وطغوا وكذبوا الرسل، فحق عليهم العذاب من الله - عز وجل.